النحو التعليميّ في كتاب "التطبيق النحوي" للدكتور عبده الراجحي: بين النظرية والوظيفة، قراءة تحليلية

مراجعة مقال Subject Rview

أ.م.د. حسام قدوري عبد

husam.qaddoori@ircoedu.uobaghdad.edu.iq

جامعة بغداد/ كلية التربية (ابن رشد) للعلوم الإنسانية

الملخص

يمثل كتاب "التطبيق النحوي" للدكتور عبده الراجحي مرحلة ناضجة في التأليف النحوي؛ فهو ليس للمبتدئين، ولا لأصحاب التخصص الدقيق، إنما هو كتاب "للمثقف" ولأي طالب في الجامعة يرغب في أن يضبط لسانه ويقيم قلمه ويفهم عبارات لغته على قواعد علمية رصينة مبسطة.

وهذا المقال يلقي الضوء بالتحليل والنقد لما في الكتاب؛ يكشف عن هندسة بنائه، والغاية المنشودة منه، ومقدار ما يقدمه في بابه، وأهم ما يمكن انتقاده فيه، معتمدا المنهج التحليلي في سبيل ذلك.

الكلمات المفتاحية: التعليم، النحو، التحليل.

Educational grammar in the book "Grammatical Application" by Dr. Abdo Al-Rajhi: Between theory and function, an analytical reading.

Assistant Professor Dr Hussam Qaddoorie Abed

University of Baghdad / College of Education (Ibn Rushd) for Humanities

Abstract:

Dr. Abdo Al-Rajhi's book "Grammatical Application" represents a mature stage in grammatical writing; it is not for beginners, nor for those with a precise specialization, but rather it is a book for the "intellectual" and for any university student who wants to control his tongue, evaluate his pen, and understand the expressions of his language on sound, simplified scientific rules.

This article sheds light on the analysis and criticism of the book; it reveals its structural design, its intended purpose, the extent of its contribution to its field, and the most important points that can be criticized in it, relying on the analytical method for this purpose.

Keywords: Education, Grammar, Analysis.

مقدمة أولى:

قد يقع الاضطراب والخلط بين "علم النحو" كونه علماً وصفياً تاريخياً يدرس ظواهر اللغة ويفسر أصولها وفلسفتها، وبين "النحو التعليمي"؛ فهو مادة بيداغوجية (تربوية) وظيفية. وعلينا التسليم المطلق لحقيقة أن المشكلة التي نعيشها ليست في اللغة نفسها، بل هي أزمة في طريقة تقديمها. وعليه نمت الحاجة الماسة إلى "النحو التعليمي" الذي يهدف لتخريج متحدثين وكتاب مهرة، وليس إلى تخريج نحاة متخصصين!

أولاً: (لماذا ندرس النحو؟)؛ الغاية الكبرى:

تختلف جذرياً الغاية من النحو التعليمي عن هدف النحو التخصصي؛ فيمكن تلخيص القيمة العظمى في مصطلح واحد هو: "الكفاية اللغوية" أو ما سماه ابن خلدون قديماً "الملكة".

أي الانتقال من المعرفة الواعية إلى الأداء التلقائي، ليس حفظ ألفية ابن مالك غايتنا، بل أن يمتلك المتعلم نظاماً لغوياً داخلياً يمكنه من إنتاج الجمل الصحيحة السليمة من دون التفكير المستمر –أثناء الكلام– في القاعدة.

إن تحويل النحو من غاية في نفسه إلى طريقة عملية لفهم النصوص القرآنية، والأدبية، والعلمية والتواصل مع الآخرين. فالنحو –ههنا– خادم للمعنى، وليس هو المقصود من جهد تعلمه.

ماذا نريد أن نحقق في قاعات درس النحو العربي؟ والإجابة متشعبة يمكن الإلماع إلى بعض منها: السلامة اللغوية؛ ونصفها بعصمة اللسان والقلم؛ إذ يتمكن الطالب من اجتناب اللحن، و(الخطأ) المفسد للمعنى، أو المسيء إلى الرسالة اللغوية شكلاً ومضموناً.

ومنها تنمية المهارات الخاصة بالتفكير المنطقي؛ فالنحو بهذا الفهم رياضة ذهنية؛ فإدراك العلاقات والنسب بين التراكيب السببية، والشرطية، والحالية يقوي المقدرة لدى الطالب على التفكير المتزن، وتوثيق الأسباب بالمسببات. وتنمية فهم تراثنا الحضاري، والقدرة على تفكيك نصوص التراث العربي والإسلامي وتحليلها، وفهم دلالاتها الدقيقة التي تتغير بتغير الإعراب.

ومنها تنمية توظيف الاقتصاد المعرفي؛ في تقديم القواعد الموصوفة بـ "المطردة"، (القوانين العامة) واستبعاد ما يوصف بـ "الشواذ" ومثلها العلل الفلسفية (العلل الثواني والثوالث) التي لا تفيد المتعلم في ضبط لغته.

كيف نحقق ذلك؟ سؤال له قيمته الكبرى، ولتحقيق هذه الانتقالة من النحو الفلسفي المعقد إلى النحو التعليمي الميسر، ولا بد من ابتكار وسائل علمية، ومنهجيات دقيقة، منها:

١ . التدرج والانتقاء: فليس كل ما في تراثنا الحضاري يصلح للتدريس. فعلى النحو التعليمي أن يقوم بعملية "فلترة وتصفية" للمادة العلمية: كإلغاء مسائل الخلاف المذهبي بين مدارس النحو القديمة كالبصرة والكوفة. وإهمال القواعد قليلة الاستعمال، والاهتمام بالجملة قبل المفردة.

٢ . الركون إلى "النحو النصي": أي تدريس القواعد من "النصوص المتماسكة الحية"، ورفض الجمل الصناعية؛ مثل: ضرب زيد عمراً. على الطالب أن يدرك أثر الإعراب في المعنى وأن يرى القاعدة تعمل داخل سياق حي كالآية القرآنية، أو القصة أو المقال أو... الخ

٣. التطبيق الوظيفي المستمر: علينا أن نخرج عن تقليدية السؤال المعروف "أعرب ما تحته خط" واستبداله بأسئلة وظيفية، مثل: غير الحركة ليتغير المعنى. واستخدم هذه الكلمة في جملة فتكون فاعلاً مرة ومفعولاً مرة. وصحح الخطأ في العبارة الآتية مبينا أثره في المعنى.

٤. استخدام التقنيات الحديثة: كالخرائط الذهنية والانفوكرافيك؛ لربط أبواب النحو بعضها ببعض؛ كتوظيف التلوين الدلالي، واستخدام الألوان لتمييز العلامات الإعرابية ووظائف الكلمات، مما يرسخ الصورة الذهنية للقاعدة.

ليس النحو التعليمي "مسخاً" للنحو العربي ولا تنازلاً عن رصانته، إنما هو تقويم وتهذيب وتشذيب غايته وهدفه إعادة العربية إلى ألسنة أبنائها غضة طرية كما كانت. إنه محاولة جادة لنقل الطالب من عقدة "صعوبة النحو" إلى متعة "اكتشاف المعنى" من بوابة الإعراب.

مقاربة تحليلية نقدية في كتاب (التطبيق النحوي) لعبده الراجحي:

يعد كتاب "التطبيق النحوي" للدكتور عبده الراجحي أحد أهم المدونات النحوية المعاصرة التي حاولت ردم الفجوة بين التراث النحوي القديم والدرس اللغوي التعليمي الحديث. ومحاولة استكشاف محاولته هذه تحليلاً ونقدا لها أهميتها البالغة في رصد مسار النحو التعليمي. ومن مقدمة المؤلف للطبعتين الأولى والثانية، يتضح أن الكتاب يحدد المشكلة؛ وهي شكوى الدارسين من صعوبة النحو العربي وجفافه. وقد رصد الراجحي أهدافه في مجموعة نقاط:

* من النظرية إلى التطبيق؛ ليس الهدف حفظ القواعد، بل قدرتنا على تحليل النصوص وفهم نظام الجملة العربية.

* الوظيفية التعليمية في تقديم النحو وسيلة لفهم المعنى في الفقه والتفسير والأدب، وليس هو الغاية في نفسه.

* التيسير الممنهج في محاولة تقديم المادة التراثية العربية بأسلوب وطراز جديد معاصر يتجاوز خلافات البصريين والكوفيين مما لا طائل منه للطالب المبتدئ.

اعتمد المؤلف في بناء كتابه وتنظيمه منهجاً منطقياً متدرجاً من الجزء إلى الكل، وقد قسم كتابه على بابين رئيسين، وبعض الملحقات:

* الباب الأول: وهو الكلمة: المدخل التأسيسي، إذ يرى الراجحي متابعا القدماء أن تحديد "نوع الكلمة"؛ اسم، فعل، حرف هو الخطوة الأهم. مناقشا بعد ذلك المبني والمعرب، وعلامات الإعراب الأصلية والفرعية والمقدرة، والأسماء المبنية بالتفصيل؛ كالضمائر، وأسماء الإشارة، والموصولات، وأسماء الأفعال، ... إلخ.

* الباب الثاني: الجملة: وهو "مدار الدراسة النحوية" عند المؤلف متابعا القدماء. وينقسم هذا الباب بناء على نوع الجملة إلى الجملة الاسمية: (المبتدأ والخبر، النواسخ)، والجملة الفعلية: (الفعل والفاعل، المفاعيل، التوابع)، ثم الملحقات والتطبيقات: وقد ذيل الراجحي الأبواب بتطبيقات إعرابية، ونماذج من القرآن الكريم لربط القاعدة بالشاهد الفصيح.

ثالثاً: المنهجية والأساليب

انماز أسلوب الراجحي في هذا الكتاب بعدة سمات منهجية؛ منها: التمسك بنظرية "العامل" المعروفة، على الرغم من حداثة الطرح؛ إذ يصر الراجحي على أن "العامل" عنصر جوهري في الفكر النحوي العربي فلا يستغنى عنه لفهم الإعراب. ومنها التعليم بالتطبيق؛ إذ لا يكتفي بسرد القاعدة، بل يتبعها بنماذج إعرابية (معرب، عامل، علامة)، ومنها استخدام المصطلحات الكلاسيكية التي ورثناها من القدماء؛ مثل: متمكن أمكن، ومتمكن غير أمكن، لكنه قدمها بشرح مبسط وعصري.

ومنها اعتماده الاستقراء والتحليل في شرحه للأدوات؛ مثل: "ما" و"من"، فيقوم باستقراء وظائفها المختلفة في سياقات متعددة (نافية، موصولة، استفهامية) لتدريب الطالب على التمييز الدقيق.

تكمن نقاط القوة في تجربة الراجحي في مجموعة ملاحظات؛ منها: وضوح اللغة وسهولتها، فاستطاع تحرير اللغة النحوية من التعقيد والركاكة التي تقرن بها المتون النحوية القديمة ولا سيما الحواشي منها. ومنها كثرة الشواهد القرآنية؛ فربطُ النحو بالنص القرآني يعطي الطالب ثقة في أن النحو وسيلة لفهم الوحي وليس مجرد رياضة ذهنية معقدة. ومنها التدرج المنطقي في ترتيب الموضوعات المدروسة، فهو يرى البناء من الكلمة إلى الجملة يساعد الطالب على امتلاك الأدوات قبل الدخول في تراكيب الجمل المعقدة.

ويمكننا طرح بعض الملاحظات النقدية على تجربة الراجحي؛ منها الإيغال في التقدير الإعرابي: في بعض المواضع، فيلجأ الراجحي إلى إعرابات تقديرية معقدة قد تتعارض مع مبدأ "التيسير" الذي دعا إليه. مثال ذلك إعرابه لاسم "لا" النافية للجنس أو المنادى بأنه "مبني في محل

نصب"، وهو توجه تيسيري لكن تفريعاته (مثل إعراب "لولاك" واختياره لرأي سيبويه بأنه مجرور بحرف جر شبيه بالزائد) قد تربك المبتدئ.

ومنها التمسك الصارم الشديد بنظرية العامل، رغم أن نظريات لغوية حديثة، ونحاة مجددين، مثل ابن مضاء قديماً، أو مدرسة التيسير حديثاً قد دعوا لإسقاط نظرية العامل كونها فلسفية أكثر من كونها لغوية، إلا أن الراجحي دافع عنها بشدة وعدها أساساً نحويا. وهذا قد يجعل الكتاب تقليدياً في جوهره رغم حداثة غلافه وعنوانه.

ومنها عدم التوسع في "الجملة" بعدها نصا له أثره في الكلام؛ إذ اهتم الكتاب بالجملة وحدة إعرابية (مبتدأ وخبر، فعل وفاعل) ولم يتوسع كثيراً في "نحو النص" أو علاقات الجمل بعضها ببعض، إلّا في الجمل التي لها محل من الإعراب، وهو ما قد يحتاجه الطالب المتقدم لفهم تماسك النصوص.

الخاتمة، والتوصيات:

يلخص الكتاب ثمرة التجربة الفردية، والخبرة المتراكمة للدكتور الراجحي في تدريس النحو العربي، وعليه فإن التجربة الفردية طغت على نمط الكتاب وتجربته في تقديم النحو العربي للطلبة بشكل أكثر مقبولية، وسهولة، وعليه لا يمكن الركون لهذه التجربة وحدها، وإنما إضافتها إلى غيرها من التجارب الفردية، ثم تحديد نقاط القوة في مجموعة التجارب وتفعيلها وتطويرها وصولاً لتجارب أكثر فاعلية وتأثيرا.

المصادر:

- التطبيق النحوي، د. عبده الراجحي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط/١، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.
- تيسير النحو التعليمي قديما وحديثًا مع نهج تجديده، د. شوقي ضيف، ط/٢، دار المعارف، مصر، ١٩٩٣م.